المسؤولية القيادية وقصة المسمار المفقود

نشر في جريدة أخبار الخليج بتاريخ 1 مايو 2022

بقلم: الدكتور زكريا الخنجي

ما قصة المسمار المفقود ؟

يروى أنه في الزمن الغابر أن أحد المزارعين الذين يسكنون في أطراف المدينة أراد الخروج والذهاب إلى سوق المدينة، بهدف بيع نتاج أرضه من محاصيل وثمار وفي المقابل شراء بعض المؤن والاحتياجات اليومية التي يحتاجها وأسرته.

ذهب منذ الصباح الباكر، فهمَّ أن يُسرج حصانه، إلا أنه أكتشف بعد أن نظر إلى أقدام الحصان أن واحدة من حدواة الحصان ينقصه مسمار واحد فقط، فبحث تحت أقدام الحصان إلا أنه لم يجد المسمار المفقود، فقال في نفسه: "لا بأس، ما هو إلا مسمار واحد، لا يهم كثيرًا، سأتجاهله حتى أعود".

وضع متاعه على الحصان، وركبه، ثم سار مسافة، وبعد أن بلغ حوالي ربع المسافة شعر أن الحصان يعرج نوعًا ما، فنزل من الحصان فأخذ يتفحص أرجل الحصان، فاكتشف أن تلك الحدوة التي كانت ينقصها ذلك المسمار المفقود قد سقط في الطريق من غير أن يشعر، فوقف حائرًا

ونظر إلى الطريق والمسافة المتبقية، إلا أنه قال في النهاية: "لا بأس، أعتقد أن الحصان يمكنه أن يسير بثلاث حدوات".

إلا أن الرجل بعد أن سار حوالي 100 متر، شعر أن الحصان بدأ يعرج بصورة واضحة، فاستاء وغضب ونهر الحصان، إلا أن الحصان لم يتمكن من العمل بصورة أفضل من ذلك، فالحصان يعرج بصورة أكيدة ولا يستطيع السير كل المسافة المتبقية، فنظر في القدم ذات الحدوة الناقصة والمسمار المفقود فوجد أنها قد جرحت وبدأت تنزف، فماذا يمكن للمزارع أن يفعل الآن ؟ وكانت هذه الفكرة التي تراوده في تلك اللحظة.

"حسنٌ، أعتقد من الأفضل أن أسير على قدميّ، حتى نصل إلى المدينة، وربما هذا يقلل المشقة على الحصان"، قال هذه الكلمات في نفسه، فأمسك الحبل، ومضى يمشي بالقرب من الحصان، ولكن هذا لم يخفف الألم الذي كان يشعر به الحصان، ليس ذلك فحسب وإنما شعر المزارع أيضًا بالإجهاد، فالمسافة ليست بالقصيرة ويصعب عليه السير على الأقدام كل هذه المسافة، فعاود التفكير مرة أخرى، ماذا يمكنه أن يفعل؟

فوقف لحظة، ثم قام فقطع قطعة من ثوبه وربط بها رجل الحصان ذات الحدوة الناقصة والمسمار المفقود، وركب الحصان، ثم سار به، وسار، وبلغت الشمس كبد السماء، فظهر التعب والإعياء عليه، فعادة كان في مثل هذا الوقت في المدينة وفي السوق يتبضع، ويتغدى ويجهز نفسه

للعودة، إلا أن هذه المرة فهو مازال في منتصف الطريق يعاني الأمرين بسبب الحصان ذي الحدوة الناقصة والمسمار المفقود.

وفي منتصف الظهيرة، وفي الحر الشديد كانت الاستراحة ضرورية جداً للمزارع وللحصان، والتفت ذات اليمين وذات الشمال لعله يجد بئر ماء أو واحة أو أي شجرة يمكنه أن يستظل بها، إلا أنه لم يجد، فجلس على الرمال، وأوقف الحصان، إلا أن الأمور لا تُحل بهذه الطريقة، فغضب على الحصان وشتمه وضربه، وعمل كل ما يمكن أن ينفس عن غضبه، وما كان من الحصان إلا أن يزمجر وهو في أشد حالات العطش والجوع والألم بسبب رجله التي من غير حدوة.

وفي تلك اللحظة، لحظة الغضب والألم والجوع والعطش سقط الحصان مغشياً عليه وبعد هنيهة من الوقت نفق، فصرخ المزارع وبدأ يضرب جيفة الحصان ثم يضرب نفسه ويقول: "لا يمكن، لا يمكن، لماذا يحدث كل هذا لي .. كان مجرد مسمار مفقود، مسمار واحد، لماذا تكالبت كل هذه الأمور مرة واحدة، ماذا أفعل الآن ؟".

وقبيل المغرب، مرت عليه قافلة صغيرة وهي عائدة من المدينة ومن السوق، فتوقفت للتعرف على هذا الرجل الواقف في قارعة الطريق وبالقرب من حصان نافق، فسأله كبير القافلة: "ما بك ؟".

فحكى لهم الحكاية، فقالوا له: "سنعقد معك صفقة، وهي كالتالي: نأخذ بضاعتك التي بدأت تتعفن لنوصلك إلى أقرب مكان لمدينتك، والتي منها يمكن السير على الأقدام حتى تصل إلى بيتك".

قال: "ولكني في هذه الحالة سأفقد كل شيء".

قال كبير القافلة: "هذا هو الاتفاق، فإن شئت فاركب معنا، وإلا ابق هنا بين الرمال والذئاب التي ستبدأ بالعواء عما قريب".

وافق على مضض، فركب معهم، وساروا، والمزارع يشعر أنه – فعلاً – خسر كل شيء، وعاد إلى منزله وأهله بخفي حنين، وقال في نفسه وهو في أشد حالات الكآبة والحزن: "كل هذا بسبب تهاوني في إصلاح حدوة الحصان في اللحظة التي كنتُ أستطيع أن أفعل ذلك، كل هذا بسبب أني أهملت المسمار المفقود، فلو أني لم أهمل هذه المشكلة البسيطة جداً في بدايتها لما تفاقمت وبلغتُ هذا المبلغ، أنا إنسان سلبي، أستحق كل ما جرى لي".

والآن لنسأل أنفسنا، ترى كم مسمار مفقود أهملنا في حياتنا، ثم اكتشفنا بعد برهة من الوقت، أن مشكلة المسمار تفاقمت وغدت مشكلة أو ربما أزمة تحتاج الآن إلى الكثير من الوقت والجهد والمال لإدارتها ؟ على الرغم من أنه كان بالإمكان حلها بأقل كلفة ممكنة في اللحظات الأولى عندما اكتشفنا أنه هناك مسمار مفقود.

فعلى مستوى الدول وخاصة العربية منها، فنحن اليوم وغدًا ومستقبلاً سنعاني الكثير بسبب بضع مسامير كانت مفقودة، وكان من السهل إصلاح الأمور، إلا أننا تركناها فتعاظمت، فلو أخذنا الأمن الغذائي مثلاً، نجد أن الوطن العربي لم يكن يعاني أبدًا من مشكلة نقص الغذاء وتوفيره بأقل الأسعار، فلو أننا في السبعينيات والثمانينيات من القرن العشرين وضعنا خطة طويلة الأمد لهذه المعضلة لما بلغت اليوم لتصبح أزمة كلما لاحت في الأفق مشكلة عالمية، فمع ظهور أي بادرة مشكلة في أي قطر من العالم يهرع الناس إلى الأسواق لشراء السلع والأغذية، ويخرج المسؤولين في الدولة لمحاولة تطمين الناس أن السلع متوفرة ويمكنها أن تكفي ستة أشهر، إلا أن الناس لا يهمها كل هذا الكلام، وذلك لأن أسعار السلع ستتضاعف بصورة جنونية في الغد. ونعرف جميعنا أن هناك أمثلة كثيرة جدًا، مثل: الأمن المائي، ظاهرة التسول، موضوع البطالة والعمالة الوافدة، وما شابه ذلك، كلها أزمات بدأت بالمسمار المفقود الذي أهمل فتفاقمت وتضخمت.

وعلى مستوى المؤسسات المهنية، فحدث ولا حرج، مثل: توظيف الأشخاص في الأماكن غير المناسبة، إذ يتم توظيف الأفراد حسب اسمهم أو تصنيف المسؤول، منها الخلافات البسيطة التي يمكن أن تحدث بين المسؤولين بعضهم مع بعض، وصاحب المنصب الأعلى هو المنتصر دائمًا بغض النظر عن أي اعتبارات أخرى، ومن المظاهر التي تتكرر كثيرًا في المؤسسات أن يكون أحد الموظفين ذا قدرة كبيرة على التملق

والتسلق ومسح الأحذية، وهذا الموظف يتمكن بكل سهولة ويسر من أن يقترب من المسؤول، عندئذ يصبح هذا الموظف عين المسؤول التي ترى خارج مكتبه وأذنه التي تسمع، وهو الذي ينقل له الأخبار التي يرددها الناس ويمنع عنه الأمور التي لا يريدها، وفي نهاية الدوام يقول له "كل شيء تمام طال عمرك". هذا الموظف إن لم تحل مشكلته من اللحظات الأولى فإنه بكل سهولة سوف يتفاقم ويصبح مشكلة في يومًا ما، وكذلك سيكون عبئًا على المسؤول والعمل، ومن الظواهر التي بدأت تتضح في المؤسسات ظاهرة الشللية، فبعض المسؤولين يُقرب بعض الموظفين إليه ويُبعد الآخرين، ربما في البداية قد يشعر المسؤول أنه يبحث عن الأفضل حتى يقربهم إليه، إلا أن هذا الموضوع في حد ذاته مسمار مفقود لأنه حتمًا بعد لحظات من عمر المؤسسة ستصبح هذه الظاهرة كارثة مهنية يمكنها أن تدمر المؤسسة، والتسيب مسمار مفقود، والتسويف مسمار آخر، والإهمال وإضاعة الوقت، وعدم الشعور بالمسؤولية كلها مسامير مفقودة أثناء الدوام في مؤسساتنا، ومؤسساتنا تعاني من كل ذلك وهذا حتمًا سينعكس على تطوير البلاد والتنمية المستدامة.

وعندما نلتفت ونبحث في حياتنا الاجتماعية؛ نجد أننا نغرق في صغائر ومحقرات الأحداث والأمور، وربما أبسطها أن الزوجين لا يتحدثان عن مشاكلهما اليومية البسيطة التي تحدث في أروقة المنزل وفي ذات الوقت لا يتغافلون عنها، وإنما يحملونها في قلوبهم لتتراكم، وعندما

تبلغ منتهاها تنفجر لتدمر الحياة الزوجية. ومن ذلك أيضًا أن تكون الزوجة والأم مشغولة دائمًا في عملها وتترك كل حياتنا الزوجية وتربية الأولاد على الخادمة أو والدتها، وعندما تبلغ سن التقاعد وتجلس في البيت تجد نفسها غير مقبولة في حياة أطفالها وزوجها لأنها منذ البداية لم تترك لها مكان هناك، وكذلك الرجل يجول ويصول أثناء شبابه، ويسهر ويسمر مع أصدقائه من غير أن يتلفت إلى بيته وأطفاله، وعندما يكبر ويحاول أن يبحث عن العطف والمحبة داخل بيته يجد نفسه غريبًا.

كل تلك الكوارث – سواء على مستوى الأوطان أو المؤسسات المهنية أو حياتنا الاجتماعية أو غير ذلك – كان من الممكن تفاديها حينما كانت مسمارًا مفقودًا، فلو أصلحنا ذلك المسمار منذ الوهلة الأولى لاستطعنا أن نتجنب الكثير ولعشنا في سعادة، قال ديل كارنيجى: "إننا غالبًا ما نواجه كوارث الحياة وأحداثها في شجاعة نادرة ثم ندع التوافه بعد ذلك تغلبنا على أمرنا"، وقبل أن نختم يمكننا أن نتذكر قول رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم حينما قال: "إياكم ومُحَقَّراتِ الذنوبِ، فإِنَّما مثَلُ مُحَقَّرَاتِ الذنوبِ كَمَثَلِ قَوْمٍ نزلُوا بَطْنَ وادٍ، فجاءَ ذَا بعودٍ، وجاءَ ذَا بعودٍ، حتى حملَوا ما أنضجُوا بِهِ خبزَهُم، وإِنَّ مُحَقَّراتِ الذنوبِ متَى يُؤْخَذْ بِها صاحبُها تُهْلِكْهُ"، وهذه حقيقة فكل الأمور الصغيرة تبدأ من قضية نراها تافهة أو مسمارًا صغيرًا يمكن تجاوزه، إلا أن هذه القضية الصغيرة أو ذلك المسمار الصغيرة يتحول مع الأيام إلى كارثة.

لنراجع حياتنا، ونتأكد كم من المسامير المفقودة في حياتنا اليوم.